خاتمـــــة

———

وهكذا شكلت أجيال من الموسيقيين والمطربين لغة موسيقية عبر فيها كل جيل عن عصره وأدى دوره فى إطار جيله ، وأشاع البهجة فى نفوس معاصريه ، وفى نفوس أبناء الأجيال التى لحقته ، وأعطى نتاجا موسيقيا قد يبدو أنه مختلفا عن سابقيه ، فى حين أنـــه كان خطا متصلا يصعد أحيانا ويهبط فى أحيان أخرى ، ولكنه لم ينقطع أبدا فقد إرتقـــى هذا الفن بأحاسيس الناس وعواطفهم وتنمية ملكاتهم وساهم بشكل كبير فـــى بنـــاء ثقافـــة المجتمع وكان مقياسا لما بلغته الأمة المصرية من تهذيب للنفوس وسعة للمدارك ، وقياسا حقيقيا لشتى مراحل تقدم الأمة نحو الحضارة والتمدن حيث عكست فنون الكلمة والنغمـــة والتشكيل نبض الإنسان المصرى وطموحاته وإخفاقاته وآماله ومعاناته ، مما مهد لفترات الصحوة القومية وما واكبها • وجاء تعبيرا عن الوجدان المصرى •

لقد تطور نمط الغناء فى مصر النصف الأول من القرن العشرين خاصـــة بعـــد أن دخل المسرح والسينما وأصبح عليه ضرورة الانـــدماج معهمـــا فأصـــبح بجانـــب دوره الترفيهى يؤدى وظيفته الاجتماعية ، وبعد أن كان الغناء فنا يرمى إلى التطريب أصبح فنا يهدف إلى التعبير وتحت تأثير سيد درويش إستخدمت الآلات الموسيقية الأوربيـــة وبـــدأ تقريب الموسيقى بشكل واضح ، وأصبح اللحن خاضعا للكلمة ، يوضح معناهـــا بشـــكل كامل ، كما أصبحت الأذان المصرية تطرب أيما طرب بهذه الألحان •

وفى عصر الرواد إزدهر فن الموسيقى والطرب وعصر المطولات الغنائية وظهرت الهوية العربية الأصيلة فى أغانينا والتى عبرت عن حياة الشعب وأكـــدت قيمـــة الـــذوق الرفيع والوجدان الراقى فى حياة الناس ، وكان الفنان خـــلال ذلـــك صـــاحب مســـئولية ورسالة ، ثم ما لبث الحال أن انقلب وكأن عهد جميل من عهود هذا الفن الرفيع قد مضى وأصبح الغناء العربى الآن يمر بفترات صعبة من حياته بعد أن إنهارت أسسه وأصـــبح يمر بأزمة ماحقة تحتاج إلى جهود للخلاص منها ، فلم تعد الأغانى إلا سلسلة متلاحقة من أغان تافهة رتيبة ، مملة أشد الملل ومتشابهة خاصة بعد أن إقتحمت الأســـماع أصـــوات غربان الملاهى الليلية وأشرطة الكاسيت التى أصبح تجارها لا يهتمون بشئ سوى الكسب السريع على حساب تدمير الذوق العام حتى أصبحنا نعيش وسط جو خال مـــن الطـــرب وألحان مكررة ومتشابهة وأصبحت الأغانى كل شئ فيها بلا مضـــمون ، وتفتقـــر إلـــى

الذوق، ويغلب عليها السطحية والابتذال والإسفاف والكلام الهابط وتقلبت الأمور واتخذت أشكالا وألوانا فى كل مجال "وحبة من هنا وحبة من هناك" دون تأليف أو تجانس خاصة بعد أن إزداد الدخلاء على هذا الفن ، وسلبوا الموسيقى العربية نفائسها لقلة تمكنهم من الثقافة الفنية وجمود أذهانهم عن الابتكار ، فخرجوا على الناس بموسيقى لاهى عربية ولا هى غربية ، وزاد الطين بلة ظهور العديد من الأغانى الهابطة على شرائط الكاسيت المباحة دون ضوابط أخلاقية أو فنية مما زاد من التلوث السمعى للأغانى المصرية ٠

إن ما يتردد فى الأوساط الثقافية والفنية أن التدهور الذى تعانيه الأغنية المصرية فى الوقت الحالى يرجع إلى انتهاء عصر الريادة الغنائية فى مصر فبعد أن كان الناس فى أنحاء الوطن العربى يتجمعون لسماع أم كلثوم وعبد الحليم وفريد الأطرش وهم يغردون عبر الأثير أغانى من ألحان عبد الوهاب والسنباطى وغيره ، وترتقى مشاعرهم بكلمات ترتقى بالشعور وتهذب السلوك لدرجة أن الناس فى مجالسهم كانوا يرددونها ويحفظها بعضهم عن ظهر قلب أصبحوا الآن يستمعون لمطربين لا يهتمون سوى بالرقص على إيقاعات الألحان الصاخبة والزاعقة أكثر من اهتمامهم بالغناء ، ولا يهتمون بالعائد الأدبى بل يشغلون أنفسهم بالعائد المادى الكبير حيث حفلات الأثرياء الجدد فى الفنادق والأفراح[1] ٠

إن مصر فى حاجة إلى أحياء هذا الفن الجميل مثل حاجتها إلى تأسيس المعارف وإتقان الزراعة والصناعة والتجارة ، حتى يكون هناك تناسقا بين جمال الروح والمادة ، ويسرى فى الشباب المصرى حب الوطن ، وتشحذ هممهم وتجلى الصدأ عن قلوبهم ، فهؤلاء ليسوا مجموعة من الأجسام والبطون فحسب بل هم فوق ذلك مجموعة نفوس لا تقل مطالبها عن مطالب البدن ، كما أن ينبوع القوة ومبعث العزيمة ، والحافز إلى كبار الأعمال إنما هو ذلك القلب الذى يخفق بين الجناحين وهذا القلب لا تنبعث فيه حرارة الرغبة فى طلب المعالى إلا بالاستعانة بهذا الفن الجميل ٠ إننا وسط لهاث ساخن نبحث عن نقطة نقاء بارده ننطلق منها من وسط ركام الألحان والأغنيات المتكررة المتشابهة فى ركاكتها ، والمكدسة بالضوضاء والسطحية التى يعدها البعض من مواصفات الأغنية الشبابية والموسيقى العربية بلا شك تحمل داخل مضامينها نقطة الانطلاق نحو سماء رحبة تسع العالم العربى بأكمله ، كما أن الفن الحقيقى يصل إلى الناس ، ويعلن عن

(١) مصطفى الضمرانى : قضايا ثقافية معاصره ص ٩-١١ ٠

وجوده بأوضح الطرق التى يمكن تخيلها وأوضح الأدلة على ذلك إعجاب الناس ببعض الأصوات القليلة النادرة الموجودة على الساحة إن ما يحدث لفن الغناء فى مصر الآن يحتاج إلى تحليل وبحث ودراسة من أجهزة الدولة خاصة وأن وراء ما يحدث أهدافا القصد منها تدمير ذوق ووجدان الشعب المصرى الذى يعانى قصورا شديدا فى التذوق الموسيقى ، وعلينا أن نرتفع بالمستوى الفنى ونستعيد هذا الجزء الجميل من حياتنا الإبداعية والفنية ونرتفع بالناس إلى التذوق الموسيقى السليم والذى يمكن أن يؤدى انتعاشه إلى إنتعاش المناخ الإبداعى فى كل ألوان الفنون والعلوم ، إن أمامنا الآن مهمة ليست باليسيرة وهى رفع مستوى تذوق الموسيقى الجادة فمتى يصبح الليل البهيم نهارا وسط شعب يحب الطرب من صميم قلبه ، وإلى متى يتوقف ينبوع المواهب عن العطاء ، ولا يعطى للمبدعين الحقيقيين فرصة الانتشار والإنطلاق .

فمصر بحضارتها وعبقرية مكانها وزمانها وأبنائها لم تتوقف عن إنتاج الموهوبين رغم الصيحات الانهزامية التى تصور كل شئ على أنه أسود ، ولكن يشترط فى الفنان الموهوب أن يشعر أن مصر تعيش فى داخله ، ولا يكفى فقط بأنه عاش فى مصر .